

خطبة الجمعة - الخطبة ٥٠٤ : ١ - الجانب النفسي في حياة الإنسان (جددوا إيمانكم) ، خ ٢ -
الصحة النفسية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-١١-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله ، ثم الحمد لله ، الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وما توفيقي ، ولا اعتصامي ، ولا توكلتي إلا على الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً لرُبوبيته ، وإرغاماً لمن جدد به وكفر ، وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله سيد الخلق والبشر ما اتصّلت عين بنظر ، أو سمعت أذن بخبر ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين ، اللهم ارحمنا فإنك بنا راحم ، ولا تعذبنا فإنك علينا قادر ، وأطف بنا فيما جرث به المقادير ، إنك على كل شيء قدير ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

النفس التي بين جنبيك أئمن شيء في الدنيا :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ أنهيت في الأسبوع الماضي سلسلة خطب تتحدث عن الجانب الاجتماعي في الإنسان ، وهأنذا أبدأ بعون الله وتوفيقه سلسلة خطب أخرى ، تتحدث عن الجانب النفسي في حياة الإنسان ، فالإنسان أيها الأخوة في حياته الدنيا من حين إلى آخر يُرتب أوراقه ، ويرتب مكتبته ، ويُعيد النظر في أموره، يراجع حساباته ، يحتفظ بالمهم ، يرضى الأهم ، يُلقي بالتافه في سلة المهملات ، هذه الحركة ؛ حركة الجرد ، حركة التَّقُّص ، حركة التقييم ، حركة الفرز ، حركة رعاية الأهم ، والاحتفاظ بالمهم ، إلقاء التافه في سلة المهملات ، مراجعة الحسابات ، معرفة رأس المال ، الأرباح ، الخسائر ، هذه الحركة يفعلها كل إنسان ، مهما كان عمله صغيراً ، يفعلها الإنسان في بيته ، يرتب أغراضه ، يرتب مكتبته ، يراجع الأوراق المبعثرة في درجه ، أليست نفس الإنسان أشد حاجة للمراجعة من هذه الحاجات المادية ؟

أيها الأخوة الكرام ؛ هذه النفس التي كرمها الله ، وهذه النفس التي خلقها الله لجنّة عرضها السموات والأرض ؛ ألا تستحقّ هذا الجهد ؟ ألا تستحقّ هذا التنظيم ؟ ألا تستحقّ هذه المراجعة ؟ ألا تستحقّ هذه النفس أن تتعمّد شؤونها بين الحين والحين لِتَرى ما عراها من اضطرابٍ فتزِيله وما لحقها من إثم فتتفِيه ؟ أيها الأخوة الكرام ؛ هذه النفس التي بين جنبيك أئمن شيء في الدنيا ، ألا تستحقّ بعد كل مرحلة تقطعها أن تعيد النظر فيما عراها من غم أو غم ؟ أن ترجع إلى اعتدالها كلما رجّتها الأزمات ، وهزّها العراك الدائب على ظهر الأرض ؟ هذه الخلوّة مع النفس ، مراجعة الحسابات ، معرفة الأرباح والخسائر ، معرفة المغام

والمغامر ، معرفة نقاط القوّة ونقاط الضّعف، معرفة ما صحّ منه العمل ، وما ساء منه العمل ، الإنسان المؤمن أيّها الأخوة في أمس الحاجة لهذه المراجعة ، إنّ القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((جِدِّدُوا إِيمَانَكُمْ . . .))

[أحمد عن أبي هريرة]

حاجة الإنسان إلى المراجعة و الفرز و التقييم :

أيها الأخوة الكرام ؛ يمكن أن يكون محور هذه الخطبة : جِدِّدُوا إِيمَانَكُمْ ! الإنسان يحتاج إلى مراجعة ، ولا ينبغي أن تستهلكه الحياة ، لا ينبغي أن يكون سعيه سعيًا غير واضح ، وغير هادف ، لا ينبغي أن يهْمَش في الحياة .

أيّها الأخوة الكرام ؛ الإنسان ذلك المخلوق الأوّل هو أحوج الخلائق على الإطلاق إلى التنقيب في أرجاء نفسه ، هل جلس أحدنا مرّةً مع نفسه وتخصّص بيته ؟ هل فيه معصية لا ترضي الله ؟ هل فيه خلل يخرجُه عن منهج الله ؟ هل هناك عمل يُسخط الله عليه ؟ هل تفحص الإنسان عمله ؟ هل تفحص عاداته وتقاليده ؟ هل تفحص سلوكه ؟

يا أيها الأخوة الكرام ؛ مرّةً ثانيةً : نحن في أمس الحاجة إلى المراجعة ، إلى الفرز ، إلى التقييم ، إلى معرفة ما صحّ منه العمل ، وما ساء منه العمل .

الابتعاد عن التسوية المهلك :

نقطة ثانية في هذه الخطبة ، الإنسان يتمنى كثيرًا أن يفتح مع الله صفحة جديدة ، وهذه أمنية كلّ مؤمن ، ولكنّ الخطر يتأتّى من أن معظم المسلمين يُعلّقون فتح هذه الصفحة الجديدة مع الله ، أو الصلح مع الله ، أو التوبة النصوح بالتعبير القرآني ، يعلّقون هذا الحدث الأساسي في حياتهم ، يعلّقونه على شيء تحبّبه الأقدار ، يقول لك : إلى أن تنتهي هذه الدراسة ، إلى أن أتزوّج ، إلى أن أستقلّ في بيتٍ وحدي ، إلى أن أنهي هذا المشروع ، إلى أن يأتي الصيف ، إلى أن تأتي الشتاء ، الإنسان حينما يعلّق هذا الصلح مع الله ، أو فتح هذه الصفحة الجديدة من حياته على حدث يأتي في المستقبل يُعلّق هذا بموعد تحبّبه الأقدار ، إنّ هذا الإنسان يقع في وهم كبير ، إنّ الصلح مع الله ، والتوبة النصوح ، وفتح صفحة جديدة مع الله لا يأتيك من خارجك ، لا بدّ أن ينبع من داخلك .

أيها الأخوة الكرام ؛ يقع الإنسان في وهم كبير حينما ينتظر أن يأتيه دافع خارجي يدفعه إلى الله ، يقع الإنسان في وهم كبير حينما يتوهم أنّه إذا فرغ من هذا العمل تفرّغ إلى الله ، إذا خرج من البيت واستقلّ في بيت آخر ينطلق إلى الله ، إذا أنهى هذه الشركة ينطلق إلى الله ، إذا أنهى هذه الدراسة ينطلق إلى الله ، حينما تعلّق صلحك مع الله ، وفتح صفحة جديدة مع الله ، حينما تعلّق التوبة النصوح على شيء يأتيك في

المستقبل يعطيك قوّة على نفسك ؛ هذا وهَمٌّ كبير، وهذا هو التَّسْوِيفُ المهلك ، فقد ورد في الأثر : "هلك المُسَوِّفُونَ".

أيها الأخوة الكرام ؛ البذرة ، بذرة الورد أو بذرة الأزهار ، تحتفظ بكلِّ مَقَوِّمَاتِهَا ، ولو حُبِّبْتَ فِي تَرَابِ قَدْرِ ، لو وُضِعَتْ فِي أَمَاكِنِ ذَاتِ بِيئَةٍ سَيِّئَةٍ ، إِنَّهَا تَشَقُّ طَرِيقَهَا إِلَى الشَّمْسِ ، إِنَّهَا تَتَفَتَّحُ بِعَطْرِ ، وَرَائِحَةٍ ، وَمَنْظَرٍ يُبَاعِدُهَا عَنْ بِيئَتِهَا ، لَا تَتَنَظَّرُ أَنْ يَأْتِيكَ الدَّعْمُ الْخَارِجِي ، ابْحَثْ عَنْ ذَاتِكَ مِنَ الدَّخْلِ ، وَاعْقِدِ الصَّلْحَ مَعَ اللَّهِ مِنْ تَوَكُّكَ ، لِأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ لَا تَمْلِكُهُ .

أيها الأخوة الكرام ؛ أنت بين أيام ثلاثة ؛ بين يومٍ مَضَى ، ويومٍ سَيَأْتِي ، ويومٍ تَعِيشُهُ ، فالْيَوْمُ الَّذِي مَضَى مَضَى ، وَلَا جَدْوَى مِنَ الْحَدِيثِ عَنْهُ ، وَالْيَوْمُ الَّذِي سَيَأْتِي لَا تَمْلِكُهُ ، لَا تَمْلِكُ إِلَّا اللَّحْظَةَ الْحَاضِرَةَ فِيمَا أَنْ تَتَوَبَّ فِيهَا ، وَإِنَّمَا أَنْ تَقْوَتْ عَنْكَ الْفُرْصَةُ .

من ملك نفسه و حريته و وقته وصل إلى الله :

أيها الأخوة الكرام ؛ الإنسان إذا ملك نفسه ، وإذا ملك وقته ، وإذا ملك حريته ، يستطيع أن يصل إلى الله ، وأن يسعد بقرْبِهِ ، ولو كانت الظروف التي حوله لا تُطَاق ، ولو كانت الظروف المادية والاجتماعية والنفسية لا تطاق ، لأنه كما يقول بعض الكتاب هو أقوى من كلِّ ما يحيط به ، الإنسان ليس منفعلاً ، ولو نشأ في بيئة سيئة ، ولو أحاطت به ظروف قاسية ، ولو أُقِيمَتْ أَمَامَهُ عَقَبَاتُ كَوْوُدٍ ، ولو حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَرِيدُ ، هو أقوى من كلِّ العقبات ، أقوى من كلِّ الظروف ، أقوى من كلِّ البيئات ، أقوى من كلِّ المعطيات .

أيها الأخوة الكرام ؛ عليك أن تملك نفسك لا أن تملكك نفسك ، عليك أن تملك الوقت لا أن تكون جزءاً من الوقت ، عليك أن تملك حرية الحركة ، إذا ملكت نفسك ، ونظمت وقتك ، وتحررت من عبودية المادة ، ومن عبودية الشهوات ، ومن عبودية التقاليد والأعراف ، ومن عبودية ما توارثته عن الآباء الذي لا ينطبق مع الحقيقة تكون أقوى من كل شيء .

أيها الأخوة الكرام ؛ يجب أن تؤمن أنك تستطيع أن تفعل كلَّ شيء إذا أردت ، إنَّ القرار الذي يتَّخِذُهُ الْإِنْسَانُ فِي شَأْنِ مَصِيرِهِ قَلَّمَا تَتَقَضَى الْأَيَّامُ إِذَا كَانَ صَادِرًا حَقًّا عَنْ إِيْمَانٍ ، وَعَنْ إِرَادَةٍ .

أيها الأخوة الكرام ؛ شَطْرُ بَيْتٍ فَصَلَّتْ فِيهِ كَثِيرًا ، مَا مَضَى فَاتٍ ، وَالْمَوْمَلُّ غَيْبٌ ، وَلَكِ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا ، لَا تَقَلُّ : أَفْعَلْ هَذَا غَدًا ، وَهَلِ الدَّهْرُ كُلُّهُ غَدًا ؟ لَا تَقَلُّ سَوْفَ ، مِنْ تَوَكُّكَ ، وَمِنْ لِحْظَتِكَ ، وَمِنْ هَذِهِ الثَّانِيَةِ إِعْقِدِ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ تَطِيعَ اللَّهَ ، مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ قَلْبًا : يَا رَبِّ أَعَاهِدُكَ عَلَى الطَّاعَةِ ، مَا مَضَى فَاتٍ ، وَالْمَوْمَلُّ غَيْبٌ ، وَلَكِ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا .

الفكرة الثانية أيها الأخوة في هذه الخطبة ، أنه لا ينبغي أن تنتظر أن يأتي ظرفٌ خارجي كي يدفعك إلى الله ، لن تندفع إلى الله إلا بدافعٍ داخلي ، لن تصل إلى الله إلا بقرارٍ داخلي ، ولو أنَّ كلَّ البيئة تفعل فعلاً سلبيًا ، ولو أنَّ الظروف ليست مواتية ، ولو أنَّ البيئة ليست صالحة ، ولو أنَّ ضغوط العمل كانت قاسية ، ولو أنَّ ما في اليد كان قليلاً ، الإنسان أقوى من كلِّ الظروف ، وهذه هي الحقيقة ، وهناك أدلة لا تعد ولا

تحصى من حياة العظماء الذين شقوا طريقهم إلى ما يأملون ، ولم يعبؤوا بكل المثبطات ، ولا بالعقبات ، ولا بكل البيئات والمعوقات .

الاستفادة من الوقت بالأعمال الصالحة :

أيها الأخوة الكرام ؛ روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا))

[مسلم عن أبي موسى]

إذا كنت في النهار فنتب إلى الله ، لأن الله باسط يديه إليك ، يريد أن يتوب عليك ، يريد أن يسعدك ، ويريد أن يقربك إلى ذاته ، يريد أن ينور عقلك ويطمئن قلبك ، ويريد أن تكون معه ، لا أن تكون مع الشهوة .
أيها الأخوة الكرام ؛ قال ابن عباس رضي الله عنه :

((النادم ينتظر الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، وكل عامل سيندم على ما أسلف عند موته ، فإن ملاك الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان فاركبهما بلاغاً إلى الآخرة ، وإياكم والتسوية بالتوبة والغرة بحلم الله! واعلموا أن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شرك نعله ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره))

[أبو القاسم بن بشران في أماليه عن ابن عباس]

واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله ، وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها ، وإنما الليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة ، واخذروا التسوية فإن الموت يأتي بغتة ، ولا يغتر أحدكم بحلم الله عز وجل ، فإن الجنة أو النار أقرب إلى أحدكم من شرك نعله ، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

[سورة الزلزلة : ٧-٨]

لسيدنا عمر بن عبد العزيز قول رائع ، يقول : الليل والنهار يعملان فيك ، كيف ؟ أليست عندك صورة وأنت شاب ؟ وأنت في السابعة عشرة من عمرك ؟ وأنت في الثانية عشرة ؟ انظر إلى هذه الصورة وأنت في مقتبل الحياة ، انظر إلى الوجه ، انظر إلى نظارة الشباب ، وإلى جمال الشعر ، ثم انظر إلى صورة الإنسان وهو في الأربعين ، وهو في الخمسين ، وهو في الستين ، هذا من فعل الليل والنهار ، الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما ، عليك أن تعمل فيهما ، أي عليك أن تتفق الوقت إنفاقاً استثمارياً ، عليك أن تستفيد من الوقت ، لا أن يستهلكك الوقت ، وهذا معنى الآية القرآنية الكريمة :

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾

[سورة العصر : ١-٣]

خسارة محققة ، ما هي الخسارة ؟ مضي الوقت يستهلك الإنسان ، فهنيئاً لمن أنفق وقته إنفاقاً استثمارياً ، لا إنفاقاً استهلاكياً ، هنيئاً لمن آمن وعمل صالحاً ، وتوأسى بالحق ، وتوأسى بالصبر .

الانتصار على الذات هو الانتصار الحقيقي :

أيها الأخوة الكرام ؛ كلّ تأخير في إنفاذ منهج الله عز وجل ، الذي يُجَدِّد حياتك ، وإيمانك ، ويصلحُ به عملك ، وتُسعد به نفسك ، كلّ تسويف أو تأخير ، أو تعليق على حدثٍ يردّه المستقبل ، هذا التسويف وهذا التأخير لا يعني إلا إطالة فترة الهزيمة أمام نوازع الهوى ، الإنسان حينما تغلبه نفسه هو مهزوم ، هزمتُهُ نفسه ، الانتصار على الذات هو الانتصار الحقيقي ، أحد زعماء الغرب ممّن ربح الحرب العالمية الثانية قال كلمةً وما أبلغها من كلمة ، قال : ملكنا العالم ، ولم نملك أنفسنا !! البطولة أن تملك نفسك ، وقد فسّر بعض المفسرين قول الله عز وجل على لسان سيّدنا يوسف :

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾

[سورة يوسف : ١٠١]

قالوا : ليس ملك الدنيا ، وإنّما أن يملك الإنسان نفسه ، فإذا ملكت نفسك سيطررت على نوازع الهوى ، سيطررت على النزعة الماديّة ، سيطررت على ما الناس غارقون به من حبّ الدنيا والاستمتاع بها ، إذا سيطررت على نفسك فقد انتصرت عليها ، أما إذا ملكتك نفسك فأنت مهزوم ، والتسويف يُطيل أمد الهزيمة . أيها الأخوة الكرام ؛ ربّما كان التسويف - وهذه فكرة خطيرة - طريقاً إلى انحدارٍ أشدّ وهو الطامّة ، لأنّ الشرّ يأتي بشرّ أكبر وهكذا ، والإنسان حركي وليس ساكناً ، فكلّ عملٍ طيّب يقوده إلى عملٍ أطيب ، وكلّ خطوة نحو الله تقوده إلى خطوة أخرى ، وكلّ عمل سيئ يقوده إلى عملٍ أسوأ ، وكلّ خطوة نحو الدنيا تقوده إلى خطوة نحو النار ، فيا أيها الأخوة الكرام الفكرة الثانية : لا تنتظر حدثاً في المستقبل ، لا تعلق توبتك إلى الله على مرحلةٍ تنتهي ، أو على زواجٍ ينعقد ، أو على شركةٍ تؤسّس ، أو على صيفٍ يأتي ، أو على دراسةٍ تنتهي ، أو على دعمٍ خارجي ، الهداية قرار تتخذه في داخلك بصرف النظر عن كلّ عوامل البيئة التي تحيط بك .

إهمال النفس يؤدي إلى الضياع و التشتت :

أيها الأخوة الكرام ؛ الإنسان - وهذا القسم الثالث من الخطبة - حينما يُهمل شؤون حياته النفسيّة والعقليّة قلماً يبقى متماسكاً ، لأنّ احتكاكه بظروف الحياة ، وصنوف الشهوات ، وضروب المغريات ، هذا الاحتكاك الحادّ مع إهمال شؤون حياته العقليّة والنفسيّة ؛ هذا يحيل الإنسان إلى حالةٍ مبعثرةٍ مشتتةٍ ، إلى ضياع ، إذا ترك الإنسان نفسه ، ولم يراجع حساباته ، ولم يجدّ إيمانه ، ترك نفسه لعوامل الهدم ، وعوامل الهدم آتية لا محالة ، عندئذٍ ينفرط بناؤه العقلي والعاطفي كما تنفرط حبّات العقد إذا انقطع السلك ، وهذا شأن كما قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾

[سورة الكهف : ٢٨]

أزوع ما في الآية كلمة وكان أمره فرطاً ؛ انظر إلى حبات العنب التي سقطت من العنقود ، انظر إلى حبات التمر التي سقطت من العرجون ، كلمة فرط تعني حبات متناثرة لا يجمعها شيء ، والإنسان إذا أهمل نفسه ، أهمل علاقته مع الله ، أهمل إقامة شرع الله ، لم يُعِنَ بمستقبله الأخروي ، عاش حياة ضياع ، يصدق عليه هذا القول : وكان أمره فرطاً ! أموره مُسَيَّرَة ، نفسه ضائعة ، رغباته تسيطر عليه ، أهدافه ضبابية ، نفسه مشتتة ، هذا حال أهل الدنيا ، وحال أهل الغفلة ، وحال أهل الجهل ، هذا حال الذين عظمت الدنيا في أعينهم فشغلتهم عن الآخرة ، هذا حال الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم .
أيها الأخوة الكرام ؛ قال تعالى :

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾

[سورة الكهف : ٢٨]

فرطاً في بيته ، فرطاً في عمله ، ذمته ليست دقيقة ، حساباته ليست منتظمة ، مواعيده ليست مضبوطة ، بيته مُسَيَّر ، أولاده ليسوا كما ينبغي ، زوجته ليست منضبطة ، قال تعالى :

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾

[سورة الكهف : ٢٨]

أيها الأخوة الكرام ؛ النفس الإنسانية إذا لم ينظم شتاتها عقيدة صحيحة ، ولا منظومة قيم رفيعة انقطعت صلّتها بالله ، وأصبحت أفكارها ومشاعرها كهذه الحبات السابقة لا خير فيها ، ولا حركة ، ولا قيمة لها ، هذا الشيء الذي انفرط عقده لا قيمة له .

مراجعة الحسابات و تفحص الشؤون قبل فوات الأوان :

أيها الأخوة الكرام ؛ كأنّ الله سبحانه وتعالى اختار لنا الوقت المناسب لتُعيد فيه الحسابات ، لتُراجع فيه الأرباح والخسائر ، كي نتفحص شؤوننا ؛ شؤون نواتنا مع الله ، وشؤون ذواتنا مع أهلنا ، وفي عملنا ، فالإنسان بعد أن يستريح من عناء اليوم الذهاب ، وقبل أن ينطلق إلى الحركة في اليوم الجديد ، هذا الوقت المبارك يستطيع الإنسان فيه أن يُجَدِّد حياته وإيمانه ، وأن يعيد بناء نفسه على أسس صحيحة ، أي وقت هذا ؟ إذا استلقيت على الفراش ، وأخذت قسطاً من الراحة ، ثم استيقظت على صلاة الفجر ، قبل أن تتطلق إلى العمل ، ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((يُنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ : مَنْ يَذْعُرُنِي

فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَعْفِرُنِي فَأَعْفِرَ لَهُ ؟))

[البخاري عن أبي هريرة]

هذا وقت السحر ، عن أبي هريرة أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا

فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَنَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا))

[البخاري عن أبي هريرة]

من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله ، أخذت قسطاً من الراحة ، واستعاد جسمك حيويته ونشاطه ، قبل أن تتطلق إلى زحمة العمل ، وإلى البيع والشراء ، وإلى التخاصم مع الناس ، هذا الوقت المبارك وقت المراجعة ، ووقت المذاكرة ، لذلك يقول الحسن البصري : " ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي يا بن آدم أنا خلقٌ جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوّد مني فأني لا أعود إلى يوم القيامة " كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ إلى صلاة الفجر يدعو بهذا الدعاء : " الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي " كم من إنسان نام ولم يستيقظ ؟! لمست زوجته يده فإذا هي باردة كلوح الثلج فقامت مذعورة فإذا هو ميت ، قال : " وعافاني في بدني " توجه نحو المغسلة ليتوضأ ، تحرك ، ورأى طريقه ، وسمع صوت الباب ، سمعه وبصره وقوته معه ؛ " الحمد لله الذي ردّ إليّ روحي ، وعافاني في بدني ، وأذن لي بذكره " ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي يا بن آدم أنا خلقٌ جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوّد مني فأني لا أعود إلى يوم القيامة، هذه النقطة الثالثة : إذا أهملت شؤون دينك انفرط عقداك ، وتشتتت نفسك ، وضاعت عليك سعادتك ، وكان حال هذا الإنسان كما وصفه الله عز وجل :

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾

[سورة المدثر : ٥٠-٥١]

عمل متواصل ، جهد كبير ، ثم يُفاجأ بملك الموت وهو لا يملك شيئاً من زاد الآخرة ، قال تعالى :

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾

[سورة البقرة : ١٩٧]

الاتجاه إلى الله بإخلاص و إيمان :

النقطة الرابعة في هذه الخطبة : لا يقولنّ أحدكم : لي أخطاء كثيرة ، أيها الأخ الكريم لو كانت أخطاؤك ملء السماء والأرض غفرها الله لك بشرط أن تتجه إليه مخلصاً ، وأن تقصد وجهه الكريم ، طالبني بالدليل ؟ قال تعالى :

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾

[سورة الزمر : ٥٣]

و كما ورد في الحديث القدسي :

((يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا بن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة))

[الترمذي عن أنس]

يا أيها الأخوة الكرام ؛ لماذا لا يطير الإنسان إلى الله على جناح الشوق ؟ لماذا يؤثر أن يساق إلى الله بسيط الرهبة والخوف ؟ لك أن تصل إلى الله على جناح الشوق ، فإن لم تفعل ساقك الله إليه بسيط الابتلاء.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط :

أيها الأخوة الكرام ؛ أضع بين أيديكم هذه الحقيقة ، أنت مُخَيَّر ، ولكن خيارك مع أشياء كثيرة خيار قبول أو رفض ، عُرِضَ عليك هذا البيت ، تقول : لم يُعْجِبني ، أو إِنَّ ثمنه مرتفع ، عُرِضَتْ عليك هذه الشَّرْكَة ، تقول : نصيبي قليل أنا لا أُوافق على هذه النِّسْبة ، فخيارك خيار قبول أو رفض ، لكنَّه ينبغي أن تعلم علم يقين أنَّ خيارك مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض ، إنّما هو خيار وقت فقط ، فإن لم تؤمن في الوقت المناسب ، وإن لم تصطلح مع الله في الوقت المناسب ، إن لم تفتح مع الله صفحةً جديدة في الوقت المناسب، إن لم تتَّجِبْ إلى الله توبَةً نصوحة في الوقت المناسب ، كانت هذه التوبة بعد فوات الأوان ، وعندئذٍ لا تنفع التوبة ، ألم يقل فرعون : آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل ؟ آمن إذا ، أَكْفَرُ كَفَّار الأرض قال: آمنتُ ، فقال الله تعالى :

﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

[سورة يونس : ٩١]

إذا خيارك مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض ، خيار وقت فقط ، فإمّا أن تختار الوقت المناسب ، أو أن يكون الإيمان في وقت غير مناسب ، وعندئذٍ لا ينعف الإيمان شيئاً .

من تعرّف إلى الله وسلك المنهج القويم قطف ثماراً يانعةً في الدنيا قبل الآخرة :

أيها الأخوة الكرام ؛ بقيت لنا نقطة أخيرة ، إنّ فرحة الله بَعُودَة عباده إليه فوق كلِّ وصف ، قال عليه الصلاة والسلام :

((لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مِنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ))

[البخاري عن عبد الله بن مسعود]

وفي رواية أخرى من شدّة الفرح يقول هذا البدوي : يا رب أنا ربك وأنت عبدي ! اخْتَلَّ توازنه .
أيها الأخوة الكرام ؛ ألا نستغرب أنّ المؤمن إذا عاد إلى الله ، واصطلح معه ، يلقى هذا الترحاب من الله ، ويلقى هذا الانتظار ، ويلقى هذا العطف وتلك الرحمة ؟ إنّ أنبل الناس عرفاً ، وأطهرهم نفساً قلماً يجدوا فؤاداً يتلَهَّف على لقاءهم هذا التلهّف ، أما هذا الإنسان الخطّاء المقصّر المُسْرِف فإذا أراد أن يصطلح مع الله لقي من الله هذه المودّة ، وهذه اللّهفة ، وهذا العطف ، وتلك الرحمة .

أيها الأخوة الكرام ؛ الإنسان إذا تعرّف إلى الله ، وسلك المنهج القويم قطف ثماراً يانعةً في الدنيا قبل الآخرة.

العودة التي يفرح الله بها هي انتصار دائم على أسباب الضعف والخمول :

لكن هناك نقطة لا بدّ من التّحفظ عليها فهذه العودة التي يفرح الله بها أشدّ الفرح من ذلك البدويّ بناقته ليست عوذة خاطفة ، يزدّد بعدها المرء إلى ما ألفت من فوضى وإسراف ، ليس محاولةً ينقصها صدق العزم ، وقوّة النّحمّل ، وطول الجّد ، إنّ هذه العودة التي يفرح الله بها هي انتصار دائم على أسباب الضّعف والخمول ، تحطيم أبدّي لفيود الهوى والجحود ، قال تعالى :

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾

[سورة طه : ٨٢]

أيها الأخوة الكرام ؛ الصّالح مع الله ، والتوبة النصوح ، وتجديد الإيمان لا يعني أن تُدخل على برنامجك اليومي بعض الأعمال الصالحة ، وأن تُدخل على برنامجك اليومي بعض النوايا الحسنة ، ليس هذا هو المطلوب ، لا بدّ من أن تجدد حياتك تجديدًا كليًا ، لا بدّ من أن توقع كلّ حركاتك وسكناتك وفق منهج الله ، لا بدّ من أن تتقصى كلّ أوامر الله عز وجل ، هذا معنى التوبة النصوح ، أو العودة إلى الله التي يفرح الله بها ، لذلك لو أنّ للإنسان بعض الأعمال الصالحة وسط ركامٍ من الأعمال السيئة هذا لا يُنجي ، لذلك قال تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾

[سورة النجم : ٣٣-٣٤]

أعطى قليلاً ، لا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا وله أعمال صالحة ، إلا وتعتريه بعض الحالات النفسية الطيبة ، إلا وينوي بعض النوايا الطيبة ، هذا لا يكفي ، وهذه النقطة لا تصنع بحرًا ، وهذه النقطة لا تصنع ماءً كثيرًا .

أيها الأخوة الكرام ؛ جنة عرضها السموات والأرض لا تملكها برّكعتين ولا بدّقع ليرتين ، الجنة أعظم من ذلك ، ألا إنّ سلعة الله غالية ، حينما توقع حياتك وفق منهج الله ، وحينما تصطلح معه ، وحينما تتوب إليه توبةً نصوحة عندئذٍ تعرف معنى كيف أنّ الله يفرح بهذه التوبة النصوح .

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أنّ ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا ، وسيخطئ غيرنا إلينا فلننخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، صاحب الخلق العظيم ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أيها الأخوة الكرام ؛ يعرّف علماء النفس الصّحة النفسيّة بتعريفين اثنين ؛ الأوّل أن تخلو حياة الإنسان من الأمراض النفسيّة ، وما أكثر الأمراض النفسيّة ، والأمراض النفسيّة في حقيقتها هي أعراض لمرض واحد ، هي أعراض الإعراض عن الله ، ويعرّف علماء النفس مرّةً ثانية الصّحة النفسيّة بأنّها القدرة على التّكيّف مع المحيط ، ولو رجعت إلى القرآن الكريم ، وإلى السنّة النبويّة المطهّرة لوجدت أنّ حياة المؤمن باصطلاحه مع الله ، وسيّره على منهج الله ، وتلك القيم التي تنتظم حياته ، وهذا الصّبر الذي يصبره ، وهذا الشكر الذي يشكره ، وهذا الإحسان الذي يفعله تنطبق على أعلى درجات الصّحة النفسيّة ، ولا تشنوا أيّها الأخوة أنّ الخل إذا أصاب الجسد فهذا خلل مؤت ينتهي مع موت الجسد ، لكنّ القلب إذا أصابه عطب ، هذا القلب يعيش معك إلى أبد الأبد ، لذلك قال تعالى :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[سورة الشعراء: ٨٨-٨٩]

العبرة أن يكون قلبك سليماً لأنّ هذا القلب السليم هو سبب سعادتك الأبدية ، وهذا القلب الممتلئ بالأمراض الناتجة عن الإعراض هو سبب الشقاء الأبد ، لذلك ربّنا عز وجل يقول :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[سورة الشعراء: ٨٨-٨٩]

إذا أردت أن تعيش صحّة نفسيّة متوازنة فعليك بمنهج الله ، وعليك أن تكون في المستوى الذي أراد الله .

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شرّ ما قضيت ، فإنك تقضي بالحق ولا يُقضَى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، ولك الحمد على ما قضيت ، نستغفرك ونتوب إليك ، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك . اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا اللهم بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا ، مولانا رب العالمين . اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، ودينانا الذي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا ، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، مولانا رب العالمين . اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عن سواك . اللهم لا تؤمنا مكره ، ولا تهتك عنا سترك ، ولا تنسنا ذكرك يا رب العالمين . اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، وآمنا في أوطاننا ، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخياً وسائر بلاد المسلمين . اللهم

إننا نعوذ بك من الخوف إلا منك ، ومن الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، نعوذ بك من عضال الداء ، ومن شماتة الأعداء ، ومن السلب بعد العطاء . اللهم ما رزقتنا مما نحب فاجعله عوناً لنا فيما تحب ، وما زويت عنا ما نحب فاجعله فراغاً لنا فيما تحب . اللهم صن وجوهنا باليسار ، ولا تبذلها بالإقتار ، فنسأل شرّ خلقك ، ونبتلى بحمد من أعطى ، وذم من منع ، وأنت من فوقهم ولي العطاء ، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء . اللهم كما أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك يا رب العالمين . اللهم بفضلك وبرحمتك أعل كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين، وخذ بيد ولاتهم إلى ما تحب وترضى ، إنك على ما تشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين